الرينسانس والعتاقة

(إيضاحات لابد منها)

من الصعب تصور اختفاء آثار الإمبراطورية الرومانية . وقد سبقت الإشارة إلى أن الراهبات فى العصر الوسيط كُنَّ يقرأن شعر أوڤيد (مهذباً) ، وقصة طروادة وإنياس فى مترجمات المؤرخ اللاتينى الكبير «تيتوس - ليڤيوس» ويمكن القول بأن أبطال العصر الكلاسيكى تحولوا إلى فرسان العصر الوسيط ، مع محاولات بعض الهيومانيين المتقدمين إلى تصحيح شكلى . والأهم كان اهتمام پترارك بجمع المخطوطات ، حيث عثر على بعض أعمال المؤرخ الرومانى «تاسيتوس» وبعض رسائل «سيسيرون» وبعض درامات «بلاوتوس» ، بالإضافة إلى بقايا الفكر الإغريقى . . وكان رسل الكاردينال بصاريون ينتشرون فى عالم البحر المتوسط ، ويجرون البحث عن مخطوطات إغريقية . وسافر يوحنا لاسكاريس إلى الشرق موفداً من المدينتشيين للعثور على مخطوطات بيزنطية . فعاد عام ١٤٩٢ بأكثر من مائتى عمل يونانى . . وتضخمت مكتبة الڤاتيكان - فى حكم البابا نيقولا الخامس ، سنة ١٤٤٧ - من ثلاث مخطوطات يونانية حتى بلغت ٣٥٠ مخطوطة عند وفاة هذا البابا ، عام ١٤٥٥ .

وحاول توماس الإكويني التوفيق بين المسيحية والأرِسْطُورِيّة ، دون معرفة باللغة اليونانية . فقرر واحد من أعيان البندقية العدول عن الترجمة اللاتينية لأرسطو ، وضرورة العودة إلى الأصل اليونانى . ليطمئن الباحثون الأوائل . وبذلك يتحقق إصلاح الترجمات العربية ، والدومنيكانية ، فتحرر أرسطو من «المشّائية الإسكولائية» .

أما أفلاطون فلم يكن معروفاً أكثر من اسمه ، واكتشفته الهيومانية فى عصر الرينسانس . ويُعد هذا مجداً من أمجاد العصر المنير ، وبفضل الفلورنسيين . وكانت أصول الأفلاطونية قد وصلت كاملة إلى فلورنسا ، ففيما بين عامى (١٤٣٩ و ١٤٤٠) حضر إلى فلورنسا الأستاذ اليونانى الكبير يوحنا لاسكاريس ، وبعث الحماس لدراسة المحاورات الأفلاطونية ، وأثار هذا نقاشاً على طوال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حول المفاضلة بين أرسطو وأفلاطون . وانضم الأمير المديتشى إلى الأفلاطونية ، بفضل شاب لم يتجاوز العشرين عاماً هو مارسيليو فتشينو . فخصص له قُبلا فى ضاحية كاردچى أمدها بالمال والمخطوطات ليركز نفسه فى فلسفة أفلاطون . وكان هذا بدء أكاديمية المديتشى المشهورة . وعند وفاة الأمير سنة ١٤٦٤ كان فتشينو قد أتم ترجمة محاورات أفلاطون ، وتمت أعماله الأخرى بعد أربع سنوات .

ولم تكن اللغة العبرية معروفة لدى الغربيين فى العصر الوسيط . وكان للهيومانية الفضل الأكبر فى البحث عن الأصول بالعبرية ،

وخاصة أن العهد القديم» من الكتاب المقدس عبرانى اللغة . وانتهى الأمر إلى إثراء المكتبة البابوية ، وكانت الأولى فيما حوت من أعمال اليونان واليهود ، وسيجىء كلامى عن العِبْرية والعَرَبيّة فى الفصل الذى أخصصه للهيومانى الكبير بيكوديلا ميراندولا . (كتب جارجانتوا ، بطل قصة رابليه «حياة العظماء القيمة» ١٥٣٤ إلى ولده : «أود وأريدك أن تدرس اللغات دراسة طيبة ، اليونانية أولاً ، واللاتينية ثانيًا ، والعبرية ثالثًا» . فلا عجب أن حرص عالَم الهيومانزم على دراسة هذه اللغات فى جامعات : لوڤان (١٥١٧) – وأكسفورد (١٥١٧ ، ١٥٢٥) وباريس (١٥٣٠) . وفى هذه المدينة الأخيرة ، تحولت الأكاديمية المثلثة (كما كانت تعرف) إلى «الكوليج ده فرانس» على يد الملك فرانسوا الأول .

وكان لجوتنبرج : باختراعه الطباعة ودخولها باريس (١٤٧٠) الفضل فى وصول الهيومانزم إلى هناك . ومن الناحية الفنية كان الاهتمام بالآثار الرومانية القائمة فى الشمال والجنوب الإيطالى ، وصقلية ، هو الموجه للتطورات الفنية فى الرينسانس . وأعظم موضع لها ، بطبيعة الحال ، هو روما . وقد كان كافياً فى زيارة چوفانىّ ڤيلانى لروما ، أن يعتزم التحول إلى مؤرخ ، كما كان اهتمام البابوات بهذه الآثار عظيمًا ولدينا عن رافاييل (١٥١٨ – ١٥١٩) كلمة إلى البابا ليون العاشر يرجوه العناية بها . وتعدى الحفاظ إلى الأعمال والبحوث الأثرية (الأركيولوچيا) ، فاكتشفت آثار وأعمال هامة أقيمت لها المتاحف : منها «أبولّو البلڤيدير» ، وتمثال اللاوكون ،

و «فينوس القاتيكان» . . . إلخ واشتهرت أسرتان بحيازة آثار بحثوا عنها وصرفوا عليها وحملوها إلى قصورهم : أسرة فارنيزى ، اجتمعت لها ثلاثة متاحف أحدها هو المشهور إلى اليوم باسم «الفارنيزى» . ثم أسرة ديلاّقاليّ . ولم تتأخر فلورنسا فى هذا المجال ، وكان الفضل للمديتشى . هذا واكتشاف روما القديمة يعود إلى الرينسانس ، كما يعود إليها نشر الثقافة والفن فى قارة أوربا .

برونلّيسكى مبدع عمارة الرينسانس . كان نموذجه ودليله : آثار روما . وهناك شىء من النقد موجه إليه ، وهو أنه قلّدها دون النفاذ إلى الروح المحركة لها . أما ألبرتى (١٤٠٤ - ١٤٧٢) وبرامانتى (١٤٤٤ - ١٥١٤) فقد حرصا على التعمق والتَبَحُّر . إنّ ألبرتى دارس تشبع بالفكر الأفلاطونى ، فتمكن بمؤلفه الشهير - إلى جانب مجلدات فتروفيوس فى «العمارة» (التى طبعت لأول مرة عام ١٤٨٦) - من أن يصبح مرجعًا نموذجيًّا ، أو مسبحةً فنيّة لعصر الإحياء . وإذ كان ألبرتى موسيقيًّا فقد نقل الأساس الرياضى لفن الموسيقى إلى فن العمارة . فكانت الأفلاطونية هى مصدر «الإحياء» فى إبانّه .

وتبقى فاتحة بسيطة شجعت المصور والنحات على إغفال محظورات العصر الوسيط ، والعودة إلى احترام تصوير الإنسان عاريًا ومستورًا . وليس المعنى أن فنانى الرينسانس خرجوا على قاعدة العرف الدينى . إنما ذَكَّرهُم النحت الإغريقى بما يقرءون فى العهد القديم (سفر التكوين) عن خلق آدم وحواء فى جنة الخلد . فلا وجه لرفض

العرى فى التصوير والنحت . وقد خرجت من عبقرية الإغريق منجزات فنية أثبتت عظمتها فى تمثل الجسم مكشوفًا . وأعادت صورة «البرنما فيرا» [الربيع] لبوتيتشيلى مكانه فينوس وفتنتها فى عالم الفنون . بعد أن كانت فى العصر الوسيط لا تظهر إلا كتلميذة «بنت ناس» ، أى نعم ، هل نسى فنان الرينسانس أسطورة خلق فينوس من قلب صَدَفَةٍ بحرية ناصعة البياض ، إلاّ أن تلعب عليها الأضواء فتشع ظاهرة قريبة من قوس قزح ؟

لم تكن فكرة الارتداد إلى العصر الكلاسيكى تمثل رجعة فنية ، وأمامنا آثار الرينسانس فى متاحف العالم ، دليل أصالته فى موقع أهله وحياتهم ، فكانت لهم شخصيتهم فى العمارة والتصوير والنحت ، والأدب . ثم إن الإغريق لم يعرفوا التصوير الزيتى ، وإن كانوا يغطّون تصاويرهم بطبقة زيتية شفافة (الورنيش الأنكوصطبق) ولم يخرج من اليونان ولا من الرومان عمل يقارن بصورة «يوم القيامة» لميكل أنجلو ، وهو «فريسكو» على حائط مصلاة (السستينا) بالفاتيكان ، لا فى فنها فحسب . بل فى مساحتها ، وقد غطت سبعة عشر مترًا فى ثلاثة عشر .

ومثال من أصالة أدب الرينسانس ، ملحمة الشاعر الإيطالى لودوڤيكو أرپوستو (الأربوست) : «رولان غاضبًا» ، فهذه ملحمة على النسق الكلاسيكى ، ولكن شخصياتها وموضوعها واضح الأصالة فى شعر العصر الوسيط ، وقصص الفروسية ، والحواديت الشعبية . ورولان واحد من نبلاء شارلمان وفوارسه . وشاعر

الرينسانس البرتغالى : (١٥٢٥ - ١٥٨٠) «كامويتز» فى ملحمته «اللويزياذة» ، مع استيحائها واستعارتها لفن «الإنيادة» ، تأليف (شاعر اللاتين الأكبر فرجيل) ؛ فإن موضوعها فتوحات الملاحين البرتغاليين العظام بقيادة فاسكوداجاما عبر الأطلسى والهندى . واشتهر كامويتز بأشعاره الليريكية فى قالب «الصونتّه» ، ولم تك هذه معروفة فى العصور الكلاسيكية ، وإنما نشأت فى عصر الإحياء .